

سلسلة رسائل الفضيلة ٢٢

المتاجر المحترق

سلسلة الفضيلة
للنشر والتوزيع

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

المتاجر في الرحمة

إعداد

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

حقوق الطب مع محفوظة

الطبعة الأولى لدار الفضيحة
(1436 هـ - 2015 م)

رقم الإيداع: 1920 - 2015

ردمك: 5 - 029 - 58 - 9947 - 978

دار الفضيحة للنشر والتوزيع

العنوان: التعاونية العقارية (الإصلاحات) - قطعة (44) عين النعجة - الجزائر

هاتف وفاكس: 021 57 56 38

النقل: 0559 06 99 92

التوزيع: 0661 62 53 08

البريد الإلكتروني: darelfadhila@hotmail.com

موقعنا على الشبكة العنكبوتية: www.rayatalislah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ صلى الله
وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ التَّجَارَةَ وَالْإِتْجَارَ وَتَحْصِيلَ الْأَرْبَاحِ وَالتَّنَافُسَ فِي
نَيْلِ الْمَكَاسِبِ مَطْمَعُ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَرَغْبَةُ كُلِّ عَبْدٍ، وَكُلُّ أَحَدٍ
فِي هَذِهِ الدُّنْيَا بَائِعٌ مُشْتَرٍ مُتَّجِرٌ، وَكُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فِبَائِعِ نَفْسِهِ
فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوْبِقُهَا، لَكِنَّ التَّجَارَةَ الرَّابِحَةَ وَالْغَنِيمَةَ الْوَاضِحَةَ
الْبَاقِي نَفْعُهَا فِي دُنْيَا الْعَبْدِ وَآخِرَتِهِ يَغْفُلُ عَنِ التَّنَافُسِ فِيهَا
وَالسَّعْيِ فِي تَحْصِيلِهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، وَفِي هَذِهِ الرِّسَالَةِ

«المتاجر الرَّابحة» حديثٌ عن هذه التِّجارة؛ تجارة الآخرة
بالأعمال الصَّالحة، فالصَّلَاةُ مَتَجَرٌّ، والصَّيَامُ مَتَجَرٌّ،
والصَّدَقَةُ مَتَجَرٌّ، وكلُّ عملٍ صالحٍ يَتَقَرَّبُ به العبدُ إلى الله
فهو من هذه المتاجر الرَّابحة، وكما أنَّ في التِّجارة الرِّبْحَ
والخسرانَ، فكذلك هذه التِّجارةُ، فَمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا
فله الأجرُ العظيم، وَمَنْ أَعْرَضَ عن الإيمان والعملِ الصَّالحِ
فله الخُسرانُ المُبين.



مكانة العمل الصَّالح ومنزله العلية

في القرآن الكريم أكثر من ثمانين آية ذُكر فيها العملُ الصَّالح، قُرْنَ في ثلاثٍ وسبعين آيةً منها بالإيمان، وهذا العدد الكبير لذكر العمل الصَّالح مقرونًا بالإيمان مُرتَّبًا على ذلك ذكر الثَّواب والأجر من فوزٍ بمغفرة الله ﷻ ونيلٍ لرضاه، وسعادةٍ في الدُّنيا والآخرة، وهناءة عيشٍ، ونيلٍ للغفران والرَّحمة إلى غير ذلك من أنواع الثَّمار والآثار الَّتِي ينالها المؤمنون الَّذين يعملون الصَّالحات يدلُّ دلالةً بيَّنةً على مكانة العمل الصَّالح ومنزله العلية، ويزيد من إقبال العبد المؤمن على العمل الصَّالح؛ لأنَّه كُلَّمَا وقف المسلمُ على هذه

الفوائد والثمار والآثار زاد حرصه وعظمت رغبته، وإذا غفل عن ذلك ضعف وشغل بتوافه الأمور وحقير الأشياء، وإن استمرَّ على ذلك إلى أن تنقضي حياته ندم حيث لا يفيد الندم.

وفي هذه الآيات التي قرَّنا فيها الإيمان بالعمل الصَّالح دلالة على التَّلازم بينهما، وأنَّ الإيمان اشترط فيه العمل الصَّالح، وكذلك العمل الصَّالح اشترط فيه الإيمان؛ كقوله **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾** : **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ**

لِسَعِيدِهِ﴾ [سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ]، وقوله - سبحانه وتعالى - : **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** (١٧) [سُورَةُ الْحَمَلَةِ]، وقوله **﴿عَلَىٰ﴾** : **﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعِيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾** (١١) [سُورَةُ الْأَنْزِلَةِ].

وكذلك اشترط للإيمان العمل الصَّالح: **﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾** (٧٥) [سُورَةُ طٰهٍ]،

وآيات كثيرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

فإذا كان عند الإنسان عملٌ صالحٌ وليس في قلبه اعتقادٌ حقٌّ وإيمانٌ صحيحٌ؛ لا ينفعه عمله، قال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ ﴿٥﴾

[سُورَةُ الْمَائِدَةِ]، وإذا كان عند الإنسان إيمانٌ ولكنه لا يعمل شيئاً وليس عنده أيُّ عملٍ؛ فهذا أيضاً ليس من أهل الإسلام؛ لأنَّ أهلَ الإسلام والإيمان هم الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات؛ أمران متلازمان: إيمانٌ وعملٌ، إقرارٌ تنطوي عليه القلوب يُثمرُ أعمالاً تظهرُ على الجوارح، كما قال ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ؛ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»^(١).

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمان ابن

ثمره العمل الصَّالح وآثاره

والعمل الصَّالحُ ثمارُهُ وآثارُهُ على العبد في دُنْيَاهِ وأُخْرَاهِ كثيرةٌ جدًّا، وَلْيُعْلَمِ المرءُ أَنَّ هذه الدُّنْيَا بما فيها من مُتَعٍ، وما فيها من أنواعِ المنافع، وما فيها كذلك من نَسْلِ، وما فيها من تجاراتٍ لن يَدْخُلَ مع الإنسان إذا غادر هذه الحياةَ وأُدْرِجَ في القَبْرِ من ذلك شيءٌ، بل لن يَدْخُلَ مع الإنسان في قبره إِلَّا عَمَلُهُ - صَاحِحًا كان أو سَيِّئًا -، وقد جاء في «الصَّحِيحِينَ» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَتَّبِعُ الْمَيِّتَ ثَلَاثَةٌ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ وَيَبْقَى مَعَهُ وَاحِدٌ: يَتَّبِعُهُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ، فَيَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَيَبْقَى عَمَلُهُ»^(١)، ومعنى يبقى عمله: أي يدخل معه في قبره.

(١) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٦٩٦٠).

أَمَّا وَلَدُ الْإِنْسَانِ فَلَا يَدْخُلُ مَعَهُ فِي قَبْرِهِ وَلَوْ كَانَ يُحِبُّ
 وَالِدَهُ وَيُكِنُّ لَهُ عَظِيمَ الْمَوَدَّةِ، وَمَالُ الْإِنْسَانِ مَهْمَا كَثُرَ وَتَنَوَّعَ لَنْ
 يَدْخُلَ مَعَ الْإِنْسَانِ فِي قَبْرِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ رَوَاهُ
 الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ
 ﷺ قَالَ: «مَثَلُ ابْنِ آدَمَ وَمَالِهِ وَعَمَلِهِ مَثَلُ رَجُلٍ لَهُ ثَلَاثَةُ أَخِلَاءَ،
 قَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ: أَنَا مَعَكَ مَا دُمْتَ حَيًّا، فَإِذَا مِتُّ فَلَسْتُ مِنِّي وَلَا
 أَنَا مِنْكَ، فَذَلِكَ مَالُهُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا مَعَكَ، فَإِذَا بَلَغْتَ إِلَى قَبْرِكَ
 فَلَسْتُ مِنِّي وَلَسْتُ لَكَ، فَذَلِكَ وَلَدُهُ، وَقَالَ الْآخَرُ: أَنَا مَعَكَ حَيًّا
 وَمَيِّتًا فَذَلِكَ عَمَلُهُ»^(١)، وَلِهَذَا نَقَلَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي «رَوْضَةِ
 الْمُحِبِّينَ» عَنْ أَحَدِ الْحُكَمَاءِ أَنَّهُ سُئِلَ: «أَيُّ الْأَصْحَابِ أَبْرُ؟» قَالَ:
 «الْعَمَلُ الصَّالِحُ»؛ فَالْعَمَلُ الصَّالِحُ صَاحِبٌ بَارٌّ بِصَاحِبِهِ، وَانْظُرْ
 هَذَا الْبَرَّ فِي أَحْلَاكِ الْأَحْوَالِ وَأَشَدِّهَا وَأَعْظَمِهَا عِنْدَمَا يُدْرَجُ
 الْإِنْسَانُ فِي قَبْرِهِ؛ فَفِي «مُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ» عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٩٩٩٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي
 «الصَّحِيحَةِ» (٢٤٨١).

خِطَّةً عَنْهُ فِي سِيَاقٍ طَوِيلٍ، وَفِيهِ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يُسْرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعِدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوْجُوهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»، وَجَاءَ فِي «الصَّحِيحِ» عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا وُضِعَتِ الْجَنَازَةُ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدَّمُونِي، قَدَّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟»^(١).

فهذا وغيره مما يدلُّ على المكانة العظيمة للعمل الصَّالح وأنَّ من يُوفَّقُهُمُ اللهُ - سبحانه وتعالى - للأعمال الصَّالحات هم أهلُ التَّجَارَةِ الرَّابِحَةِ وَالْغَنِيمَةِ الْوَاضِحَةِ، وَمَنْ سِوَاهُمْ مِنْ كَافِرٍ أَوْ مُفَرِّطٍ فَإِنَّهُ سَيَنْدَمُ نَدَمًا عَظِيمًا وَلَنْ يُفِيدَهُ نَدَمُهُ، وَلِهَذَا؛ فَإِنَّ الْكَيْسَ مِنْ عِبَادِ اللهِ ﷻ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ الْأَمَانِيَّ، وَفِي هَذَا

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وصحَّحه الألباني في «أحكام الجنائز»

(ص ١٥٩).

المعنى يقول عليُّ بنُ أبي طالب عليه السلام: «ارْتَحَلَتِ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الْآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أبنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أبنَاءِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ»^(١) و﴿لَمِثْلُ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾^(٦١)؛ فَإِنَّ هَذِهِ هِيَ التَّجَارَةُ الرَّابِحَةُ، لَا الْعَمَلُ لِلدُّنْيَا الزَّائِلَةُ؛ فَإِنَّهَا صَفْقَةٌ خَاسِرَةٌ؛ فَنَعِيمُهَا مُتَقَطِّعٌ، وَخَيْرُهَا زَائِلٌ، وَصَاحِبُهَا عَنْ قَرِيبٍ مِنْهَا رَاحِلٌ.

وَلِيَحْذَرَ الْعَبْدُ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّفْقَةِ الْخَاسِرَةِ، وَقَدْ ضَرَبَ الْعُلَمَاءُ لَذَلِكَ مَثَلًا - كَمَا ذَكَرَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رحمته الله -
«قَالُوا: إِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ مُعَمَّرٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ - جَلَّ وَعَلَا - رَأْسَ مَالٍ، وَرَأْسُ هَذَا الْمَالِ هُوَ الْجَوَاهِرُ الَّتِي لَا يَزِيحُهَا فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ، وَلَا يَقُومُ مَقَامَهَا شَيْءٌ، وَهِيَ رَأْسُ مَالِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَنَعْنِي بِهِ هَذِهِ الْجَوَاهِرُ: سَاعَاتِ الْعُمُرِ وَأَيَّامِهِ؛ لِأَنَّ رَأْسَ مَالِ الْإِنْسَانِ هُوَ سَاعَاتُ عُمُرِهِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيلًا فِي كِتَابِ الرَّقَاقِ، بَابِ الْأَمَلِ وَطُولِهِ، قَبْلَ حَدِيثِ (٦٤١٧).

وَأَيَّامِهِ، وهذا هو أَنْفَسُ شَيْءٍ وَأَعْظَمُ شَيْءٍ يُعْطَى لِلْإِنْسَانِ، وهو رأسُ ماله، وكما أَنَّ اللَّهَ لَمَّا جَعَلَهُ رَأْسَ ماله جعله أَخَا الرَّسُولِ أَيْضًا فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ بِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ [نَظْل: ٣٧]، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ الْمُعَمَّرَ - سِوَا عُمَرَ تَعْمِيرًا طَوِيلًا أَوْ غَيْرَهُ - كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [نَظْل: ١١]، فَإِنْ كَانَ هَذَا الْمُعَمَّرُ حَازِقًا لَبِقًا يَعْرِفُ كَيْفَ يُحَرِّكُ رُؤُوسَ الْأَمْوَالِ، وَكَيْفَ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا، حَرَّكَ رَأْسَ هَذَا الْمَالِ - أَعْنَى سَاعَاتِ عُمَرِ وَأَيَّامِهِ حَرَّكَهَا - فِيمَا يُرِضِي اللَّهَ، فَرَاقَبَ اللَّحَظَاتِ وَالْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي وَالذَّقَاتِقَ وَالثَّوَانِي لئَلَّا يَضِيعَ شَيْءٌ مِنْهَا فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ، فَنَظَرَ الْأَوْقَاتَ الَّتِي تَتَوَجَّهُ فِيهَا أَوْامِرُ مِنْ رَبِّهِ؛ كَأَوْقَاتِ الصَّلَاةِ، وَأَوْقَاتِ الْحُجِّ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَطْلُوبَاتِ الَّتِي لَهَا أَوْقَاتٌ تَتَوَجَّهُ عِنْدَ وَجُودِهَا؛ فَقَامَ اللَّهُ بِذَلِكَ أَحْسَنَ قِيَامٍ، ثُمَّ إِنَّهُ فِي الْأَوْقَاتِ الَّتِي لَا تَتَوَجَّهُ بِهَا وَظَائِفُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَوْامِرُ مُعِينَةٍ، يَكْفُ شَرَّهُ وَيَخَافُ اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - وَيَسْتَكْثِرُ مِنَ الْخَيْرِ مَا اسْتَطَاعَ، فَإِذَا حَرَّكَ هَذَا رَأْسَ هَذَا الْمَالِ هَذَا

التَّحْرِيكَ الْعَظِيمَ وَتَجَرَّعَ رُبَّ الْعَالَمِينَ هَذِهِ التَّجَارَةُ الرَّابِعَةُ رَبِحَ مِنْهَا مُلْكًا لَا يَنْفَدُ، رَبِحَ مِنْهَا الْخُورَ الْعَيْنَ وَالْجَنَاتِ وَالْوُلْدَانَ، وَمَجَاوِرَةَ رَبِّ غَيْرِ غَضَبَانَ، وَالنَّظَرَ إِلَى وَجهِ اللَّهِ الْكَرِيمِ، وَقَدْ سَمَّى اللَّهُ تَحْرِيكَ رَأْسِ هَذَا الْمَالِ مَعَهُ - جَلَّ وَعَلَا - عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي ذَكَرْنَا؛ سَمَّاهُ (بَيْعًا) وَسَمَّاهُ (شِرَاءً)، وَسَمَّاهُ (تِجَارَةً)، وَسَمَّاهُ (قَرْضًا)؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ حَرَّكَ رَأْسَ مَالِهِ - وَهُوَ أَيَّامُ عُمْرِهِ - تَحْرِيكًا حَسَنًا لِائْتِقَا؛ وَلِذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أَنْوَلُوا آذُنَكُمْ عَلَى تَحْرِيقِ نُجُجِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿الْآيَةُ [سُورَةُ الصَّفَاتِ ١١]، فَصَرَّحَ بِأَنَّ ذَلِكَ تِجَارَةٌ مَعَ اللَّهِ، وَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۝٢٩﴾ [سُورَةُ طه] وَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٣﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]، وَقَالَ - جَلَّ وَعَلَا -: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

فَإِذَا كَانَ صَاحِبُ رَأْسِ هَذَا الْمَالِ الْمُسْكِينِ رَجُلًا أَهْمَقًا لَا

يعرف حقائق الأشياء، ولم يتنوّز بباطنه بنور الوحي، لم يعرف قيمة رأس هذا المال، ولا قدر هذه الجواهر التي أعطاه الله فضيعةً في قال وقيل، ولم يكتسب منها شيئاً حتى ينتهي الأجل المحدّد له فيجبر إلى القبر وهو صفر الكفين، والآخرة - أيها الإخوان - دار لا تصلح للمفالس، ولا تصلح للفقراء؛ لأنّ ليس فيها إرفاق، ولا عارية، ولا صدقة، ولا خلّة، ليس فيها للإنسان إلّا ما قدّمه من عمله، فلا ينبغي للإنسان أن يُقدّم عليها مُفلساً، فيجب على المسلمين كلّاً أن يحترموا رأس هذا المال.

إذا كان رأس المال عُمرَكَ فاحترز

عليه من الإنفاق في غير واجب»^(١).

فليعتنم الناصح لنفسه ساعات عُمره بالأعمال الصالحة التي يسرّه أن يلقي الله بها غداً، والله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [سُورَةُ الْحَجَّةِ].

(١) «العذب النّمير» (٤ / ٣٤١).

حقيقة العمل الصَّالِح وبما يتحقَّق

وفي هذا المقام - مقام الحديث عن العمل الصَّالِح - يأتي سؤالٌ لا بدَّ من بيانه ألا وهو: ما هو العملُ الصَّالِح؟ وبمَ يكون العمل صالحاً؟

والعملُ الصَّالِحُ: هو العملُ الَّذِي يُحِبُّهُ اللهُ ﷻ وَيُحِبُّهُ رَسُوْلُهُ ﷺ مِمَّا أَمَرَ اللهُ - سبحانه وتعالى - به أمرٌ إيجابٍ أو أمرٌ استحبابٍ.

وهذا ميدانٌ واسع وبابٌ رَحْبٌ، والأعمالُ الصَّالِحَاتُ القَوْلِيَّةُ والفِعْلِيَّةُ الظَّاهِرَةُ والباطِنَةُ كَثِيرَةٌ، والميدانُ فيها ميدانُ تنافسٍ، وفي هذا الميدانُ يتسابق المتسابقون ويتنافس المتنافسون مِمَّنْ يرجو رحمةَ اللهِ - سبحانه وتعالى - والفوزَ بعظيم الثَّوابِ وجَميلِ المآبِ.

ولا يكون العملُ صالحًا إِلَّا بإخلاصٍ للمعبود - جلَّ في
علاه - ومتابعةٍ للرَّسول ﷺ، فالإخلاصُ أساسُ العملِ الصَّالحِ
الَّذِي عَلَيْهِ يُبْنَى؛ فَإِنَّ الْأَعْمَالَ لَوْ تَنَوَّعَتْ وَكَثُرَتْ وَتَعَدَّدَتْ وَلَمْ
تَقُمْ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا الْعَامِلُ، وَكَذَلِكَ لَوْ أَنَّهُ
أَخْلَصَ وَلَمْ يَتَّبِعْ فِي أَعْمَالِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهَا، فَلَا يَكُونُ
الانْتِفَاعُ بِالْأَعْمَالِ إِلَّا إِذَا أُخْلِصَتْ لِلَّهِ ﷻ وَأُتْبِعَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ، قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لِبَلْوَاكُمْ أَلَيْسَ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الْبَلَاك: ٢] وَلَا يَكُونُ
الْعَمَلُ بِهَذَا الْوَصْفِ إِلَّا إِذَا قَامَ عَلَى الْإِخْلَاصِ وَالْمُتَابَعَةِ، قَالَ
الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ ﴿لِبَلْوَاكُمْ أَلَيْسَ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾:
«أَخْلَصُهُ وَأَصَوَّبُهُ»، قِيلَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ! وَمَا أَخْلَصُهُ وَأَصَوَّبُهُ؟ قَالَ:
«إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ
صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يُقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا،
وَالْخَالِصُ مَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ مَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ»^(١).

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الْإِخْلَاصِ وَالنِّيَّةِ» (٥٠ - ٥١)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي
«الْحَلِيَّةِ» (٩ / ٨).

والأعمال الصالحة التي يُحبُّها الله ﷻ وأمر بها كثيرة، لكن يأتي في الدَّرَجَةِ الأولى وفي صدر الأولويات في هذا الباب فرائض الإسلام وواجبات الدين، وهذا جانبٌ لا بدَّ من التَّنَبُّه له في باب العمل الصَّالح والعناية به، جاء في الحديث القدسي أن الله - سبحانه وتعالى - يقول: «مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ»^(١)؛ ففرائض الإسلام وواجبات الدين تأتي في المُقَدِّمة، فإذا قيل: أيُّ الأعمال أفضل وأيُّها أحبُّ؟ يقال: الفرائض.

ولا يُقدِّم نفلٌ على فرضٍ؛ فبعض النَّاسِ لدَيْهِ عنايةٌ جيِّدةٌ ببعض النوافل من برٍّ أو صلاةٍ أو صدقةٍ أو حُسنِ معاملةٍ أو غير ذلك من الأعمال، لكنَّه تجدُّه مُضَيِّعًا لفرائض عظيمة! بل تجدُّه مُضَيِّعًا لأعظم فريضة بعد التَّوْحِيدِ ألا وهي الصَّلَاةُ، والصَّلَاةُ عمادُ الدِّينِ كما ثبت ذلك عن رسول الله ﷺ، بل قال ﷺ: «مَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ
وَلَا بُرْهَانٌ وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ
وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلْفٍ»^(١).

ففي باب العمل الصالح تُقدِّمُ الفرائض، ومن شغله
فرض عن نفل فهو معذور، أمّا من شغله نفل عن فرضٍ
فهو مغرور، كيف يُشْتَغَلُ بالنوافل عن الفرائض! ولو أنّ
شخصًا سهر ليله قراءةً للقرآن، ثم يترتّب على ذلك إضاعةٌ
لصلاة الفجر فهو آثمٌ في ذلك السَّهر؛ لأنّ فيه إضاعةً
للفرض، فكيف بمن يسهر على معاصٍ وآثامٍ وأمورٍ تُسَخِّطُ
اللهَ تبارك وتعالى ثمّ يُتْبَعُ ذلك بنومٍ وإضاعةٍ لصلاة الفجر!
أين مقامُ الأعمال الصّالحات والعناية بها؟!

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٦٥٧٦)، والدَّارِمِي في «سننه» (٢٧٦٣)،
وابن حَبَّان في «صحيحه» (١٤٦٧)، وقال الذَّهَبِيُّ في «تنقيح
التَّحْقِيقِ» (٣٠٠ / ١): «سنده جيّد»، وقال ابنُ عبد الهادي أيضًا في
«تنقيح التَّحْقِيقِ» (٦١٤ / ٢): «إِسْنَادُ هَذَا الْحَدِيثِ جَيِّدٌ».

فإذا الأعمال الصالحة تتفاضل، ويأتي في مقدمها فرائض الإسلام، ثم من بعد الفرائض إن قيل أي العمل أفضل؟ يقال - كما ذكر ذلك شيخ الإسلام وغيره من أهل العلم - ليس في ذلك جوابٌ مُفصَّلٌ إلا بحسب حال الإنسان ومقامه والوقت الذي هو فيه، لكن يمكن يقال قولاً جامعاً في هذا الباب وهو: أنَّ الأفضلَ في كلِّ وقتٍ الأَوْفَقُ للسُّنَّةِ في ذلك الوقت؛ وهذه قاعدةٌ ثمينةٌ في باب التَّفاضل بين الأعمال وأيّها أفضل.



تفاضل أهل الإيمان في العمل الصالح

وإذا كانت الأعمال في نفسها متفاضلة؛ فإن أهل الإيمان في الأعمال متفاضلون، ليسوا على درجة واحدة بل بينهم تفاوت عظيم وتباين كبير، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [سُورَةُ طه: ٣٢].

«وهؤلاء كلهم مستعدون للسَّير، موقنون بالرجوع إلى الله، ولكن متفاوتون في التَّزود وتعبئة الزَّاد واختياره وفي نفس السَّير وسرعته وبطئه، فالظالم لنفسه مُقصر في الزَّاد غير آخذ منه

مَا يُبْلَغُهُ الْمَنْزَلُ؛ لَا فِي قَدْرِهِ وَلَا فِي صِفَتِهِ، بَلْ مُفَرِّطٌ فِي زَادِهِ الَّذِي
 يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَزَوَّدَهُ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ مُتَزَوِّدٌ مَا يَتَأَذَى بِهِ فِي طَرِيقِهِ
 وَيَجِدُ غَبًّا أَذَاهُ إِذَا وَصَلَ الْمَنْزَلَ بِحَسَبِ مَا تَزَوَّدَ مِنْ ذَلِكَ الْمُؤْذِي
 الضَّارِّ، وَالْمُقْتَصِدُ اقْتَصَرَ مِنَ الزَّادِ عَلَى مَا يُبْلَغُهُ وَلَمْ يَشُدَّ مَعَ ذَلِكَ
 أَحْمَالَ التَّجَارَةِ الرَّابِحَةِ وَلَمْ يَتَزَوَّدْ مَا يَضُرُّهُ فَهُوَ سَالِمٌ غَانِمٌ لَكِنْ
 فَاتَتْهُ الْمَتَاجِرُ الرَّابِحَةُ وَأَنْوَاعُ الْمَكَاسِبِ الْفَاحِشَةِ، وَالسَّابِقُ
 بِالْخَيْرَاتِ هُمٌّ فِي تَحْصِيلِ الْأَرْبَاحِ وَشَدَّ أَحْمَالُ التَّجَارَاتِ؛ لَعَلَّمَهُ
 بِمَقْدَارِ الْمَرْبِحِ الْحَاصِلِ فَيَرَى خَسْرَانًا أَنْ يَدَّخِرَ شَيْئًا مِمَّا بِيَدِهِ وَلَا
 يَتَجَرَّبُ بِهِ فَيَجِدُ رِبْحَهُ يَوْمَ يَغْتَبِطُ التُّجَّارُ بِأَرْبَاحِ تِجَارَاتِهِمْ، فَهُوَ
 كَرَجُلٍ قَدْ عَلِمَ أَنَّ أَمَامَهُ بِلْدَةَ الدَّرْهَمِ يَكْسِبُ فِيهَا عَشْرَةً إِلَى
 سَبْعِمِائَةٍ وَأَكْثَرَ وَعِنْدَهُ حَاصِلٌ وَلَهُ خَبْرَةٌ بِطَرِيقِ ذَلِكَ الْبَلَدِ وَخَبْرَةٌ
 بِالتَّجَارَةِ، فَهُوَ لَوْ أَمَكْنَهُ بَيْعُ ثِيَابِهِ وَكُلِّ مَا يَمْلِكُ حَتَّى يُهَيِّئَ بِهِ
 تِجَارَةً إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ لَفَعَلَ، فَهَكَذَا حَالُ السَّابِقِ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ
 اللَّهِ يَرَى خَسْرَانًا بَيِّنًا أَنْ يَمُرَّ عَلَيْهِ وَقْتُ فِي غَيْرِ مَتَجَرٍّ^(١).

(١) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص ٤٠٤ - ٤٠٥).

وقدّم في هذه الآيات الظالم لنفسه لئلا يقنط، وأخر
السابق بالخيرات لئلا يُصاب بالعُجب، وسبّقه بالخيرات
فضل تفضل الله به عليه ﴿يَا ذَنْ أَلله﴾، والله جلّ هو المتفضل
والمأن ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ
اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور : ٢١]؛ ولهذا ممّا ينبغي أن يفقه في
هذا المقام: أنّ الأعمال الصّالحات والطّاعات الزّاكيّات لا
يمكن أن يقوم العبد بشيء منها إلّا إذا أعانه الله وتعالى ويسر له
ذلك، قال النّبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه: «يَا مُعَاذُ إِنِّي
لَأُحِبُّكَ»، فقال له معاذ رضى الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله،
وأنا أُحِبُّكَ، قال: «أَوْصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدْعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ
أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَعْنِي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»^(١).

وممّا يجدر بالمسلم أن يلاحظه في هذا الباب - باب
الأعمال الصّالحات - أن يُبعد عن نفسه الأمور التي تكون

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وأحمد (٢٢١١٩، ٢٢١٢٦)، وصحّحه

الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٦٢).

بها السَّامَةُ والملل من العمل ومن ثمَّ الانقطاع، وهذا يحصل
لِكثيرٍ من النَّاسِ، فقد جاء في «الصَّحيح» أنَّ رسولَ الله ﷺ
سُئِلَ: «أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: أَذْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ»^(١)،
فَمَثَلًا: ركعتانِ تَصَلِّيَهُمَا كُلَّ لَيْلَةٍ خَيْرٌ لَكَ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ
تُصَلِّيَ لَيْلَةً صَلَوَاتٍ عَدِيدَةً أَوْ ثَلَاثَ لَيَالِي أَوْ أَرْبَعَ أَوْ خَمْسَ ثُمَّ
تَتْرُكَ هَذِهِ الصَّلَاةَ، وَقَدْ رَوَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،
قَالَتْ: «دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعِنْدِي امْرَأَةٌ، فَقَالَ: «مَنْ
هَذِهِ؟»، فَقُلْتُ: امْرَأَةٌ لَا تَنَامُ تُصَلِّي، قَالَ: «عَلَيْكُمْ مِنَ الْعَمَلِ
مَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى تَمَلُّوا»، وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ
إِلَيْهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ»^(٢).

فَلَيَاتِ الْعَبْدُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالنَّوَافِلِ الشَّيْءَ الَّذِي يُطِيقُ، لَكِنَّ
الْفَرَائِضَ يُلْزِمُ نَفْسَهُ بِهَا إِلْزَامًا؛ لِأَنَّهُ يُعَاقَبُ عَلَى تَرْكِهَا، وَأَمَّا
النَّوَافِلُ فَلْيَأْخُذْ مِنْهَا مَا يُمَكِّنُهُ الْمَدَاوِمَةُ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا،

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٧٨٢) مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٣)، وَمُسْلِمٌ (٧٨٥).

فالأحَبُّ إلى الله - سبحانه وتعالى - من العمل الأَدْوَمُ وإن قَلَّ .
قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: « وفيه الحثُّ على المداومة على العمل، وأنَّ
قليلَه الدَّائِمُ خَيْرٌ من كثيرٍ ينقَطِعُ، وإنَّما كان القليلُ الدَّائِمُ خَيْرًا من
الكثيرِ المُنقَطِعِ؛ لأنَّ بدوام القليلِ تدومُ الطَّاعَةُ والذِّكْرُ والمراقبةُ
والنِّيَّةُ والإخلاصُ والإقبالُ على الخالق - سبحانه وتعالى -، ويُثمِرُ
القليلُ الدَّائِمُ بحيثُ يَزِيدُ على الكثيرِ المُنقَطِعِ أضعافًا كثيرةً» .
إلا أنَّ الوردَ الذي ينبغي أن يحافظ عليه المسلم كلَّ يومٍ
وليلةٍ فيما يتعلَّقُ بالصَّلَاةِ أربعون ركعةً، كما قال ابنُ
القيم رَحِمَهُ اللهُ في ذكرِ وردِ النَّبِيِّ ﷺ الدَّائِمِ من الصَّلَاةِ: «مَجْمُوعُ
وَرَدِهِ الرَّاتِبِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَرْبَعِينَ رَكْعَةً كَانَ يُحَافِظُ عَلَيْهَا
دَائِمًا سَبْعَةَ عَشَرَ فَرَضًا وَعَشْرَ رَكْعَاتٍ أَوْ ثِنْتَا عَشْرَةَ سُنَّةً رَاتِبَةً
وَإِحْدَى عَشْرَةَ أَوْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ رَكْعَةً قِيَامُهُ بِاللَّيْلِ، والمجموعُ
أَرْبَعُونَ رَكْعَةً... فينبغي للعبدِ أن يواظِبَ على هذا الوردِ
دائمًا إلى المماتِ، فما أسرعَ الإجابةَ وأعجلَ فَتَحَ البابِ لمن
يقرَّعُه كلَّ يومٍ وليلةٍ أربعينَ مرَّةً» .

فينبغي أن يحرص المسلم على هذه الأربعين وردًا يوميًا وأن لا يُتقص منها شيئًا، وإن حصلت الزيادة فهذا خيرٌ إلى خير.

وإذا فسح الله لعبدٍ في عمره فعلية أن يذكر أن خيرَ النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ، روى الترمذي وأحمد أن أعرابيًا قال: يا رسول الله مَنْ خيرُ النَّاسِ؟ قال: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ»^(١)، وأن يذكر قولَ النَّبِيِّ - عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -: «وَأَتَمَّ الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»، وفي رواية: «وَأَتَمَّ الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا»^(٢)؛ فيجتهد في الاستكثار من الطَّاعات والقيام بالأعمال الصَّالحاتِ والتَّوبَةِ والإقبالِ على الله - سبحانه وتعالى -، «دخل سليمان بنُ عبد الملك المسجدَ فرأى شيخًا كبيرًا فدعا به، فقال: يا شيخُ! أَتُحِبُّ الموتَ؟ قال: لا، قال: بم؟ قال: ذهب الشَّبابُ وَشَرُّهُ وجاءَ الكِبَرُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٩، ٢٣٣٠)، وأحمد (١٧٦٨٠، ٢٠٤١٥)، وصحَّحه الترمذي، والألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٩٦، ٣٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٣، ٦٦٠٧) من حديث سهل بن سعد السَّاعدي رحمه الله.

وَحَيْرُهُ، فَإِذَا قُمْتُ قُلْتُ بِسْمِ اللَّهِ، وَإِذَا قَعَدْتُ قُلْتُ الْحَمْدُ لِلَّهِ
فَأَنَا أَحَبُّ أَنْ يَبْقَى لِي هَذَا»^(١).

وإن كان قد أَسْرَفَ على نفسه وفَرَطَ فَلْيَتَدَارَكْ نفسه،
فماذا ينتظر في إسرافه وتفريطه؟ أينَ تَظُنُّ أن يغادر هذه الحياةَ
مُسْرِفًا مُفَرِّطًا؟!

قال الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ لِرَجُلٍ: «كَمْ أَتَتْ عَلَيْكَ؟»،
قال: سِتُّونَ سَنَةً، قال: فَأَنْتَ مِنْذُ سِتِّينَ سَنَةً تَسِيرُ إِلَى رَبِّكَ
تُوشِكُ أَنْ تَبْلُغَ، فقال الرَّجُلُ: يَا أَبَا عَلِيٍّ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ، قال له الفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا تَقُولُ؟، قال الرَّجُلُ:
قُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، قال الفُضَيْلُ: تَعْلَمُ مَا
تَفْسِيرُهُ؟ قال الرَّجُلُ: فَسَّرَهُ لَنَا يَا أَبَا عَلِيٍّ، قال: قَوْلُكَ: إِنَّا لِلَّهِ،
تَقُولُ: أَنَا لِلَّهِ عَبْدٌ، وَأَنَا إِلَى اللَّهِ رَاجِعٌ، فَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَأَنَّهُ
إِلَيْهِ رَاجِعٌ، فَلْيَعْلَمْ بِأَنَّهُ مُوقِفٌ، وَمَنْ عَلِمَ بِأَنَّهُ مُوقِفٌ، فَلْيَعْلَمْ
بَأَنَّهُ مُسْئُولٌ، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّهُ مُسْئُولٌ، فَلْيَعِدَّ لِلسُّؤَالِ جَوَابًا، فقال

(١) رواه ابنُ أبي الدنيا في «العُمَرُ وَالشَّيْب» (٢٩).

الرَّجُلُ: فما الحيلة؟ قال: يسيرة، قال: ما هي؟ قال: تُحَسِّنُ فيما بقي يُغْفَرُ لَكَ ما مَضَى وما بَقِيَ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَسَأْتَ فيما بقي أَخَذْتَ بما مَضَى وما بَقِيَ»^(١)، وهذا ممَّا يُوضِّحُ معنى قوله - عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ -: «وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ»^(٢).

ثمَّ إذا وَفَّقَ الإنسانُ لشيءٍ من الأعمال قلَّتْ أو كَثُرَتْ فعليه أن لا يَغْتَرَّ بأعماله حتَّى وإن كَثُرَتْ وتعدَّدت، وليَذْكُرْ حالَ المؤمنين الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ - سبحانه وتعالى - في سورة المؤمنين قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾^(٣)، وقد سَأَلْتُ أُمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها النَّبِيَّ ﷺ عن معنى هذه الآية قالت: «قلت: يا رسول الله! ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَاوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٦٠) أهو الرَّجُلُ يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ؟ قال: «لَا يَا بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ، أَوْ لَا يَا بِنْتَ الصَّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيُصَلِّي

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٣، ٦٦٠٧) من حديث سهل بن سعد

السَّاعِدِي رحمته الله.

وَيَتَصَدَّقُ وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُ»^(١)، ولهذا صحَّ في الحديث أَنَّ نَبِيَّنا ﷺ قال: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قالوا: ولا أنت؟ يا رسول الله قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»^(٢)، فعلى العبد أن لا يَغْتَرَّ، بل يَحْرِصُ على الإكثار من الأعمال الصَّالحات ويسأل الله تبارك وتعالى القبول والرضا والتَّوفيقَ.

ثمَّ في هذا الباب - باب الأعمال الصَّالحة - لا يَغِبُ عن المؤمن الحَصيف العُمُرُ الثَّاني للعبد بعد موته، وهذا جانبٌ في الأعمال لا يَفُتِنُ له إِلَّا الموفقون من عباد الله؛ فيكون للواحد منهم عُمُرًا آخر في باب الأعمال بعد الموت وهو العُمُرُ الثَّاني، وفي هذا يقول ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»^(٣)، وقال في الحديث الآخر: «سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ، وَهُوَ فِي قَبْرِه: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا،

(١) أخرجه أحمد (٢٥٧٠٥)، والترمذي (٣١٧٥)، وابن ماجه (٤١٩٨)، وصحَّحه الألباني في «الصَّحِيحة» (١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أَوْ كَرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بئرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا،
أَوْ وَرَثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»^(١).

وَمِنَ الْعَجِيبِ أَنَّ نَاسًا أَمَوَاتٌ فِي قُبُورِهِمْ تَجْرِي لَهُمُ
الْأَجُورُ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَيَتَضَاعَفُ الثَّوَابُ! وَآخَرُونَ يَمْشُونَ
عَلَى الْأَرْضِ وَتَمُرُّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ وَالشُّهُورُ وَلَا يُحْصِلُونَ أَجْرًا
بَلْ يُحْصِلُونَ إِثْمًا وَوِزْرًا - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -، فَيَا سَبْحَانَ اللَّهِ فِي
هَذَا التَّفَاوُتِ وَالتَّبَايُنِ! فَأَيْنَ الْإِعْتِبَارُ؟! وَأَيْنَ الْإِدْكَارُ!؟

وَهَذَا مَقَامٌ يَنْبَغِي عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْفَقْهِ
فِيهِ ثُمَّ يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ حَتَّى لَا يَأْتِيَ عَلَيْهِ يَوْمٌ يَنْدَمُ وَلَا
يَنْفَعُهُ نَدَمُهُ، وَمَنْ فَرَّطَ أَوْ ضَيَّعَ يَنْدَمُ نَدَامَةً شَدِيدَةً فِي
مَقَامَاتٍ عَدِيدَةٍ وَلَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ فِي تِلْكَ الْمَقَامَاتِ، وَلِهَذَا
جَاءَتْ آيَاتُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى النَّدَمِ الْعَظِيمِ
عَلَى التَّفَرُّيْطِ فِي الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبَزَّازُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٧٢٨٩)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٣٤٣/٢) مِنْ
حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَحَسَنَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٣٦٠٢).

سواءً عند الموت كما قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ

أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٢﴾ [سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ .]

أو يوم النُّشور يندم : ﴿ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبِّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ ۖ أُولَٰئِكَ تَكُونُوا أَفْسَمَتْهُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴾ [سُورَةُ الْإِنشَاءِ .]

أو عند العرض على الجبار - سبحانه وتعالى - يندم : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [سُورَةُ التَّحْكِيمِ .]

أو في النَّارِ إذا أُدخل يندم ندماً عظيماً، قال الله ﷻ عن الكفار : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ [سُورَةُ الْكَافِرِينَ .] وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ تَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ [سُورَةُ قُلُوبٍ].

فهذه مقاماتٌ تكون فيها هذه الندامةُ لكنها لا تفيد، ولهذا العاقل يُعتَبَرُ ما دام في دار العمل، ويُصلح من حاله ويُصلح من أعماله ويُحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله - سبحانه وتعالى -، وفي الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ بِهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»^(١).

أراد أحدُ السلف أن يعِظَ رجلاً فأخذه إلى المقابر، ولما وقفَ عند القُبور قال له: «لو كنتَ مكانَ هؤلاء ماذا تتمنى؟ قال: أتمنى أن يُعيدني الله للحياة الدنيا لأعملَ صالحًا غيرَ الَّذي أعملُهُ، فقال له: أنت الآن فيما تتمناه»، أي أنت الآن في دار العمل، والعاقل يُحاسبُ نفسه قبل أن يحاسبه الله ﷻ، ويزنُ أعماله قبل أن تُوزَنَ يومَ لقاء الله - سبحانه وتعالى -.

وَلِيَحْذَرَ الْعَبْدُ مِنَ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّ «الذُّنُوبَ تُنْسِي الْعَبْدَ

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

حظُّهُ من هذه التَّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وتُشْغِلُهُ بالتَّجَارَةِ الْخَاسِرَةِ،
وكفى بذلك عقوبةً»^(١)، نسأل الله العافية.

وختامًا؛ فهذه إشاراتٌ يسيرةٌ حول هذا الموضوع، وهو
موضوع واسعٌ وكبير، وأسأل الله - جلَّ في علاه - بأسمائه
الحسنى وصفاته العليا أن يُوفِّقَنَا أَجْمَعِينَ لما يُحِبُّه ويرضاه من
سديدِ الأقوالِ وصالحِ الأعمال، وأن يُزَيِّنَنَا بزينَةِ الإِيْمَانِ،
وأن يجعلَنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ غيرَ ضَالِّينَ ولا مُضِلِّينَ.
وصلَّى اللهُ وسلَّم على عبده ورسوله نبينا مُحَمَّدٍ وآله
وصحبه أَجْمَعِينَ.



(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص ٢٤٨).